

الفصل الأول

مفاهيم أساسية لا بد من امتلاكها قبل تأسيس الأسرة

و فيه مبحثان

المبحث الأول: أهمية الأسرة و التربية الأسرية في المجتمع .

المبحث الثاني: الخطوات التي قدمها الإسلام لبناء صحيح للأسرة .

وفيه أربعة مطالب

المطلب الأول . ترغيب الإسلام بالزواج .

المطلب الثاني : حكم الزواج في الإسلام .

المطلب الثالث : فوائد الزواج .

المطلب الرابع : اختيار الزوج و الزوجة .

المبحث الأول :

أهمية الأسرة و التربية الأسرية في المجتمع

الأسرة الركيزة الأساسية لأي مجتمع ، لذا كانت العناية مطلوبة على نحوٍ ضروري بهذه الركيزة فإذا صح أساس البناء أصبح البنّؤون مطمئنين إلى الأرضية التي سيعتلي عليها البناء ، مما يوفر شعوراً بالأمان وافرّاً لساكنته في يوم من الأيام .

كذلك لا بد من الإيمان أن رب الأسرة كائن عامل فاعل في مجتمعه ، يؤثر فيه و يتأثر به ، يفرح لفرحه ، و يألّم لآلامه ، و من دون هذا ر بالارتباط كان من الصعب أن يندفع المرء كائناً من كان اندفاعاً فعّالاً منتجاً في خدمة مجتمعه ، و لعل الصورة المشرقة التي قدمها النبي ﷺ لارتباط المؤمنين خير دليل على صحة هذا القول إذ قال : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى »^(١) و هذا شأن المجتمع المترابط ، و أما المتفكك المبعثر الأهداف ، الشارد الأحلام و الأمني فأوصاله واهية و أعضاؤه ضعيفة لا حول لها و لا قوة .

و ما دام المجتمع مترابطاً فهذا يدعو أفراده إلى التنافس في تنشيطه و رفده بكل عوامل انقوة المادية و المعنوية ، و القوة المادية و المعنوية ما هي إلا نتاج لتربية هادفة روسة رست على نحوٍ منهجي لتوفير هذه الجوانب النهضوية الحية .

كما أن التربية الصحيحة كانت همّاً لكل الفلاسفة و المفكرين و المصلحين و القادة و السياسيين فعندما أطلق السوفييت أول قمر اصطناعي نحو الفضاء دقت الأوساط العلمية و التربوية في أمريكا ناقوس الخطر ، و أعلنت أن لا بد من رة تربوية على صعيد الجيل

(١) أخرجه مسلم .

الأمريكي الحالي و اللاحق، فعمدت إلى تغيير مناهجها المدرسية و التربوية للحاق بالروس السوفييت ، فقد اعتبرت الإدارة الأمريكية ساعتنذ أن التغيير التربوي هو العامل الحاسم في اللاحق بل و سبق الخضم السوفييت في المجال التكنولوجي و التقني .

نخلص إلى القول : إن التقدم التقني المادي يسبقه إعداد تربوي شامل لجيل مؤمن بهدف من الأهداف ، مالك عناصر القوة الذاتية .

المبحث الأول :

الخطوات التي قَدّمها الإسلام لبناء الأسرة

و التربية الإسلامية تناولت شؤون الإنسان في جميع مراحل حياته لكن لما كان الأطفال هم جيل المستقبل و عدّة المجتمع الواعد فقد اهتم بهم منذ الساعة الأولى التي وُلدت فيها فكرة الأسرة في أذهان الذكر و الأنثى إذ يعتبر الإسلام أن الأولاد في وجودهم و فاعليتهم نتاج العلاقة بين الزوج و الزوجة لذا لا بدّ من توضيح الخطوات التي قَدّمها الإسلام لبناء الأسرة على أساس متين متماسك :

المطلب الأول : الزواج في الإسلام و ترغيب الإسلام فيه

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ^(١) و قال رسول الله ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » ^(٢) و الآية ١ رة على الوطه و مؤن الزواج .
و في رواية : « فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ » ^(٣) و صيغة اسم التفضيل ((أَغْضُ))
تفيد أشد الغض . و ((أَحْصَن)) تفيد أشد الإحصان ^(٤) و قال ﷺ : « النَّكَاحُ مِنْ سُنَّتِي فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » ^(٥) .

(١) سورة : النساء ، الآية ١ .

(٢) أخرجه البخاري .

(٣) أخرجه البخاري .

(٤) ابن حجر ، فتح الباري ج ٩ / ص ١٣٧ .

(٥) أخرجه ابن ماجه .

فإذا كان الزواج يشكّل سداً مانعاً من الرذيلة ، و مهدباً للميول النفسية الكامنة في نفس الإنسان فقد رغب به الرسول الكريم ﷺ لأنه علاج ، و لأنه وقاية للإنسان من الوقوع ضحية الرغائب الجنسية غير السوية . و لذا فإن النبي ﷺ أمر بالصوم عند العجز عن الزواج مع الرغبة فيه لأنه بالجوع تضعف ان الشهوة فدلّ أن المراد بالصوم في الأصل كسر الشهوة^(١).

فالصوم هنا رون به عند عدم الاستطاعة و ضعف رة . و هنا يجب الإشارة إلى أن ابن حجر نقل عن ابن بطال أنه يقول : بسنية الزواج لأن قوله ﷺ « من لم يستطع فعليه بالصوم » فهذا الصوم ليس واجباً و هو البديل فمبدله مثله . أي أن الزواج ليس واجباً أيضاً . و لكن الإمام أحمد رأى رأياً آخر إذ قال: ((لا يجب الزواج للقا ر التائق إلا إذا خشي العنت)) و قال ابن حجر : ((تُعقَّب بأن الأمر بالصوم مرتب على عدم الاستطاعة و لا استحالة أن يقول القائل : أوجبت عليك كذا ، فإن لم تستطع فأندبك إلى كذا))^(٢).

المطلب الثاني : حكم الزواج

و لعلّ التربية الإسلامية المرتبطة بالأحكام الفقهية ارتباطاً وثيقاً تكتسب مرونتها و حيويتها من حيوية الفقه و مرونته .

فقد قال ابن دقيق العيد : ((قسّم بعض الفقهاء النكاح إلى الأحكام الخمسة و جعل الوجوب فيما إذا خاف العنت و ر على النكاح ...))^(٣).

و حكى القرطبي عن بعض علمائهم المالكية و هو المازري قال : ((فالوجوب في حق من لا يكفّ عن الزنا إلا به أي الزواج -)) .

(١) ابن حجر ، فتح الباري ج ٩ / ص ١٣٧ .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ج ٩ / ص ١٣٩ .

(٣) ابن حجر ، فتح الباري ج ٩ / ص ١٣٩ .

و التحريم : (أي تحريم الزواج) يقع على مَنْ يخلُ بالزوجة في الوطء و الإنفاق مع عدم قدرته عليه و توقانه إليه .

و الكراهة : في حق مثل هذا حيث لا إضرار بالزوجة ، فإن انقطع بذلك عن شيء من أفعال الطاعة من عبادة أو اشتغال بالعلم اشتدت الكراهة .

و الاستحباب : فيما إذا حصل به معنى مقصود من كسر شهوة و إعفاف نفس و تحصيل فرج و نحو ذلك .

و الإباحة : فيما إذا انتفت الدواعي و الموانع)) .^(١)

خلاصة ما سبق :

إنّ الزواج مَحْصَنَةٌ للفرج ، مَطَهْرَةٌ للمؤمن ، و سبيل نجاة تبعد المؤمن عن الوقوع في مهبّوي المعاصي ، و مدارك الرذائل .

المطلب الثالث : فوائد النكاح

لقد أجمع الإمام الغزالي فوائد النكاح بخمس فوائد :

١ - الفائدة الأولى : الولد

و هو الأصل الذي وُضِعَ له النكاح . و المقصود إبقاء النسل ، و ألاّ يخلو العالم من جنس الإنس ، و إنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة))^(٢) .

كما رأى الغزالي أن التوصل إلى الولد قُرْبَةٌ من أربعة أوجه هي الأصل في الترغيب عند الامن من غوائل الشهوة :

((الأول : موافقة محبة الله بالسعي في تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان .

(١) ابن حجر ، فتح الباري ج ٩ / ص ١٤٠ .

(٢) الغزالي ، إحياء علوم الدين ج ٢ / ص ٤٠ . كتاب آداب النكاح .

و الثاني : طلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير مَنْ به مباحاته .

و الثالث : طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده .

و الرابع : طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله ((^(١))

و رأى الغزالي أن الوجه الأول أدق الوجوه ... ((لأن الإعراض عن النكاح يُعرض النسل للضياع و الاندثار ، كمثل فلاح أعرض عن بذر أرضه و تعهدها فتسبب بإضاعة البذر و تعطيل لما خلق الله من الآلات المعدة ، و جان على مقصود الفطرة .

و الحكمة المفهومة من شواهد الخلقة المكتوبة على هذه الأعضاء بخط إلهي ، و ليس رقم و حرف و أصوات ، يقرؤها كل مَنْ له بصيرة ربّانية نافذة في إدراك دقائق الحكمة الأزلية))^(٢) و لذا فإن الله امتدح الرسل في قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾^(٣) .

كما أن من غايات الزواج و أهدافه الإكثار من النسل لأن النسل في الأصل عامل قوة للأمة و للعقيدة ، و ذلك إذا ما أحسنًا توجيهه ، و أتقنًا تربيته و تهذيبه ، و إلا فالعاقبة مذمومة ، و المصير شائك . لذا قال رسول الله ﷺ في حديث صحيح رواه أنس ؓ بلفظ : « تَرَوُّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ فَإِنِّي مُكَاتِرٌ بِكُمْ الْأَمَمَ »^(٤) و قال ﷺ : « تَنَاقَحُوا تَنَاسَلُوا فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمْ الْأَمَمَ »^(٥) الوجه الثاني : ((السعي في محبة رسول الله ﷺ و رضاه بتكثير ما به مباحاته إذ قد صرح رسول الله ﷺ بذلك، و يدل على مراعاة أمر الولد حديث : « خَيْرُ نَسَائِكُمُ الْوُلُودُ الْوُدُودُ »^(٦) .

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ج ٢ / ص ٤١ . كتاب آداب النكاح .

(٢) الغزالي ، إحياء علوم الدين ج ٢ / ص ٤١ .

(٣) سورة : الرعد ، الآية : ٣٨ .

(٤) أخرجه أبو داوود .

(٥) انظر فيض القدير ، ج ٣ / ص ٢٩٢ .

(٦) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ٧ / ٨٢ من حديث ابن أبي أذينة الصديقي ، و قال : وروي بإسناد صحيح مرسلًا =

الوجه الثالث : أن يبقى بعده ولد صالح يدعو له كما ورد في الخبر : إن جميع عمل ابن آدم منقطع إلا ثلاثاً فذكر الولد الصالح لأن الولد الصالح ثمرة من ثمار الرجل تعهده و رعاه فاستحق أجره . قال تعالى : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾^(١) .
أي ما نقصناهم من أعمالهم و جعلنا أولادهم مزيداً في حسابهم^(٢) .

الوجه الرابع : أن يموت الولد قبله فيكون له شفيعاً فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((مَنْ مات له اثنان من الولد فقد احتظر بحِطَارٍ من النار))^(٣) و ورد أن امرأة دفنت ثلاثة فقال لها رسول الله ﷺ : ((لقد احتظرت بحِطَارٍ شديد من النار))^(٤) و قال أيضاً : ((مَنْ قَدَّمَ ثَلَاثَةً مِنَ الْوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْجَنَّةَ كَأَنَّهُمْ كَانُوا لَهُ حِصْنًا حَصِينًا مِنَ النَّارِ)) فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ قَدَّمْتُ اثْنَيْنِ قَالَ : ((و اثنان))^(٥) .

٢ - الفائدة الثانية من فوائد الزواج : التحصن من الشيطان وكسر التوقان ودفع غوائل الشهوة و غرض البصر و حفظ البصر و حفظ الفرج .

فقد ورد في الحديث في وصف الزواج ((فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج)) . وورود هذه الآثار يكشف إلى عظيم حكمة الله تعالى إذ جعل الله تعالى ((الشهوة موكلة بتقاضي تحصيل الولد)) فالنكاح كافٍ لشغله دافع لجعله ، و صارف لشر سطوته فالشهوة والولد مقدران ، و بينهما ارتباط . بيد أن السؤال الذي يمكن طرحه :

هل المقصود اللذة أم الولد ؟ أو أن المقصود اللذة والولد لازم من لوازمها ؟

= عن سعيد بن يسار . انظر تخريج الوافي لأحاديث إحياء علوم الدين ج ٢ / ص ٤٣ .

(١) سورة : الطور ، الآية ٢١ .

(٢) الغزالي ، إحياء علوم الدين ج ٢ / ص ٤٤ .

(٣) أخرجه الطبراني .

(٤) أخرجه مسلم ، رقم ٤٧٧٠ .

(٥) أخرجه البخاري رقم ١٢٤٨ بلفظ و اثنان .

يجيب الإمام الغزالي : ((الولد هو المقصود بالفطرة والحكمة والشهوة باعثة عليه))^(١) .
ويذهب الغزالي إلى حدّ القول إلى أن اللذة عامل مهمّ من عوامل الدفع تجاه العبادة المؤدية إلى تحقيق اللذات العظيمة في الجنائن التي أعدها الله للمتقين ، إذ يرى الغزالي ((أن اللذة ولو دامت فهي منبّهة على اللذات الموعودة في الجنان ، إذ الترغيب في لذة لم يحد لها ذوقاً لا ينفع ، فلو رُغِبَ العينين في لذة الجماع ، أو الصبي في لذة الملك والسلطنة لم ينفع الترغيب . وإحدى فوائد لذات الدنيا الرغبة في دوامها في الجنة ليكون باعثاً على عبادة الله))^(٢) .

و تتوضح عمق المقاصد التربوية من الزواج حين يكشف الغزالي عن ذلك فيقول :
((فانظر إلى الحكمة ثم إلى التعبية الإلهية كيف عبّيت تحت شهوة واحدة حياتان حياة ظاهرة وحياة باطنة فالحياة الظاهرة : حياة المرء ببقاء نسله ، فإنه نوع من دوام الوجود . والحياة الباطنة : هي الحياة الأخروية ، فإن هذه اللذة الناقصة بسرعة الانصرام تحرّك الرغبة في اللذة الكاملة بلذة الدوام ، فيستحث على العبادة الموصلة إليها فيستفيد العبد بشدة الرغبة فيها تيسرّ المواظبة على ما يوصله إلى نعيم الجنان ، وما من ذرة من ذرات بدن الإنسان باطناً وظاهراً بل ذرات ملكوت السموات والأرض إلا وتحتها من لطائف الحكمة وعجائبها ما تحار العقول فيها ولكن إنما ينكشف للقلوب الطاهرة بقدر صفائها وبقدر رغبتها عن زهرة الدنيا وغرورها وغوائلها))^(٣) .

٣ - الفائدة الثالثة من فوائد الزواج :

ويرى الغزالي في الزواج ((ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة ، إراحة للقلب وتقوية له على العبادة ، فإن النفس مَلول ، وهي عن الحق تُفور ، لأنه على خلاف

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج٢ / ص ٤٥ .

(٢) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج٢ / ص ٤٦ .

(٣) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج٢ / ص ٤٦ .

طبيعتها ، فلو كُفّفت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جَمَحَتْ وثابت ، وإذا رُوِّحت بالذات في بعض الأوقات نشطت . وفي الاستثناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ، ويروّح القلب . وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات ((^(١) ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ ^(٢) . وقال أيضاً : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ ^(٣) . وقد ورد في الخبر « على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه » ^(٤) .

٤ - الفائدة الرابعة من فوائد الزواج :

((تفرّغ القلب عن تدبير المنزل ... إذ لو تكفّل بجميع أشغال المنزل لضاع أكثر أوقاته ولم يتفرّغ للعلم والعقل . فالمرأة الصالحة المصلحة للمنزل عون على الدين بهذه الطريقة . واختلال هذه الأسباب شواغل ومشوشات للقلب ومنقصات للعيش ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : ((الزوجة الصالحة ليست من الدنيات ، فإنها تفرّغك للآخرة ، وإنما تفرّغها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعاً)) ^(٥) . وظني أن هذا القول لا يتعارض مع حديث الرسول ﷺ : ((ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غابَ عنها حَفِظَتْهُ)) ^(٦) . وقال ﷺ أيضاً : ((ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تُعينه على أمرِ الآخرة)) ^(٧) . ولاحظ الغزالي كيف أن الرسول ﷺ جمع بين المرأة والذكر والشكر .

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٢ / ص ٤٦ .

(٢) سورة : الروم ، الآية ٢١ .

(٣) سورة : الأعراف ، الآية ١٨٩ .

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه ، ج ٢ / ص ٧٨ .

(٥) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٢ / ص ٥١ .

(٦) أخرجه أبو داود . رقم ١٤١٧ . وفي معناه كذلك في مسلم وأحمد .

(٧) أخرجه أحمد : مسند الأنصار / حديث ثوبان / رقم ٢١٤٠١ .

٥ - الفائدة الخامسة من فوائد الزواج :

وفي الزواج ترشيد للنفس ، وتربية لها على تحمل المسؤولية والقيام بالبدل والعتاء وأداء حقوق الآخرين ، المتمثل بالزوجة أولاً وبالأولاد من بعده ثانياً .

يقول الغزالي موضحاً الفائدة الخامسة من فوائد الزواج : ((مجاهدة النفس ورياضها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهم واحتمال الأذى منهن والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربية لأولاده))^(١) .

وقال ﷺ : ((أَلَا كُلكُمْ رَاعٍ وَكُلكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))^(٢) .

ثم يتطرق الغزالي إلى أهمية العمل التربوي إذ يقول : ((وليس مَنْ اشْتَغَلَ بِإِصْلَاحِ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ كَمَنْ اشْتَغَلَ بِإِصْلَاحِ نَفْسِهِ فَقَطْ ، وَلَا مَنْ صَبَرَ عَلَى الْأَذَى كَمَنْ رَفَعَهُ نَفْسَهُ وَأَرَاغَهَا . فَمَقَاسَةُ الْأَهْلِ وَالْوَالِدِ بِمَنْزِلَةِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَشَرٌ : فَضَّلَ عَلَيَّ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ بِثَلَاثٍ : إِحْدَاهُمَا : أَنَّهُ يَطْلُبُ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ وَقَدْ قَالَ ﷺ : «إِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ عَلَى أَهْلِكَ مِنْ نَفَقَةٍ فَإِنَّكَ تُؤَجَّرُ ، حَتَّى اللَّقْمَةَ تَرْفَعُهَا إِلَى فِيِّ امْرَأَتِكَ »))^(٣) .

المطلب الرابع : اختيار الزوجة والزواج

آ - الأسباب الداعية لحسن الاختيار :

إن الإسلام يطالب بانتقاء الزوجة والزواج على أسس سليمة وذلك للأسباب التالية :

أولاً : بما أن الزواج ليس عملية عبثية ، إنما هو عملية هادفة لإرساء قواعد الأسرة المنسجمة المستقرة والتي بدورها تساهم في بناء المجتمع السليم المستقر لذا فإن الإسلام قد حثّ كلا الزوجين على الاختيار الدقيق لشريك حياته وفق معايير صحيحة بعيدة عن العاطفة والخيال^(٤) .

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٢ / ص ٥٣ .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٢ / ٨١ بسند صحيح ، و أحمد ١ / ١٧٢ .

ثانياً : الزواج عقد شراكة الأصل بقاؤه مستمراً حتى نهاية الحياة ، لذلك كان من حق الطرفين اختيار شريكه .. ولذا كان من حق الفتاة أن تختار الكفو المناسب لها ولا يجوز لأوليائها أن يكرهوها على من لا ترغب في مشاركته حياة زوجية أسها الأول أن يرضى الطرفان بإنشائها فقد قال رسول الله ﷺ : « لا تُنكح المرأة حتى تُستأمر ، ولا تُنكح البكر حتى تُستأذن » قالوا : يا رسول الله وكيف إذن؟ قال : « أن تسكت »^(١) .

كما ارتقت وتيرة وعي المرأة المسلمة في مطالبتها بحقها في اختيار الزوج الذي يناسبها حتى أنها شكت أباه لرسول الله ﷺ . فقد جاءت فتاة إلى النبي ﷺ فقالت : ((إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته)) قال : فجعل الأمر إليها ، فقالت : ((قد أجزت ما صنع أبي ، ولكن أردت أن تعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء))^(٢) .

كما جاءت فتاة بكرٌ إلى النبي ﷺ فذكرت له أن أباه زوجها وهي كارهة فخيرها النبي ﷺ^(٣) .

والملاحظ مما سبق أن مسألة الحرية في الاختيار أساسية في عقد الزواج لتوفير الاستقرار والانسجام الدائمين بين الطرفين اللذين عنهما سينبثق كيان جديد اسمه الأسرة عندما ينضم الأولاد إليهما .

ب -) أهم الأسس التي يتم اختيار الزوجين بناء عليها لقيام حياة زوجية وأسرية مستقرة .

١ - الدين والأخلاق الحسنة

عندما نقول فلان ذو دين ، وفلانة ذات دين ، فهذا يعني أنهما متفهمان مطبّقان لأحكامه على جميع الصُّعد . فإذا ما توفّر ذلك في الزوجين فقد حازا الأساس الأول ، والركيزة الأقوى التي

(١) محمد شريف الصوّاف ، تربية الأبناء المراهقين ، ص ٣١ .

(٢) أخرجه البخاري رقم / ٤٨٤٣ . و مسلم رقم / ١٤١٩ .

(٣) أخرجه ابن ماجة رقم / ١٨٧٤ .

(٤) أخرجه أبو داود رقم / ٢٠٩٦ / وابن ماجة رقم / ١٨٧٥ .

تبنى عليها دعائم الحياة الزوجية المرجوة ، فهذان يصلحان لأن يكونا منشئين لأسرة منتجة مساهمة في بناء المجتمع وتطوره .

وفي مواجهة المقاييس المنحرفة في اختيار الزوجة والزوج جاء المقياس الإسلامي بلفظ حديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه : « إذا جاءكم من ترضون دينه وحُلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض »^(١). كما جاء الهدي النبوي موضحاً الخصال التي تُنكح المرأة لأجلها منوهاً إلى أهمية الدين بوصفه الخصلة الأهم ، والدعامة الأقوى فقال ﷺ : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، وجمالها ، ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك »^(٢). وفي رواية « ذات الدين والحُلُق »^(٣).

ومما لاشك فيه أن المرأة المطيعة لربها ، المحببة له ، هي المرشحة أولاً وقبل غيرها للنجاح في تربية الجيل تربية صالحة فيها نفع للدين والأمة والوطن ، وهي المؤهلة لأداء الطاعة للزوج لأن ربها أمرها بذلك .

وكذلك الزوج الصالح التقي ، الوقاف عند حدود الله هو المؤهل ودون غيره ، لرعاية الزوجة المؤمن عليها ، وهو القادر على إعطائها حقها غير منقوص مما يجعل مستقبل الأسرة زاهراً مضموناً .

وأما الجمال والنسب والحسب فهي خصال محمودة شريطة أن تترافق مع الخصلة الأساس الدين والأخلاق لأن الدين والأخلاق هو الخصلة التي تحيط تلك الخصال بسياج منيعة ودرع تمنع هذه الخصال من الإيقاع بالمرأة بمهاوي المهالك ، ويراثن المعاصي .

(١) أخرجه الترمذي رقم / ١٠٨٤ / .

(٢) أخرجه البخاري رقم / ٤٨٠٢ / و مسلم رقم / ١٤٦٦ / .

(٣) أخرجه البخاري رقم / ٤٨٠٢ / و مسلم رقم / ٤١٦ / .

٢ - المال

إن المتتبع لأحكام الإسلام العامّة يرى أنها جامعة لخاصّتي العاطفية والمثالية ، فلم يجعل من العاطفة الشرط الوحيد لنجاح الحياة الزوجية مهما كانت جيّاشة قوية ، إذ خشي الإسلام ألا تصمد العواطف العامرة أمام قسوة الحياة المادية ، وشظف العيش الشديد ، لذا عالج الإسلام الواقع البشري معالجةً ميدانية واقعية أولاً ثم ارتفع بها نحو المثالية شيئاً فشيئاً .

فعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها أن معاوية و أبا جهم خطباها فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله : « أما معاوية فصلوك لا مال له ، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه . انكحي أسامة بن زيد » . فكرهته . ثم قال : « انكحي أسامة بن زيد » فنكحته فجعل الله فيه خيراً و اغتبط ^(١) .

وفي هذا الحديث دلالة على أن عامل التقوى هو المرجح والمرجح . ولعل قول النبي صلى الله عليه وآله لفاطمة بنت قيس : « انكحي أسامة بن زيد » مع سواد لونه الشديد ليس إلا لأنه يعلم أن مصلحتها في زواجها منه وكان ذلك إذ قالت : « فجعل الله لي فيه خيراً » ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله في رواية أخرى « طاعة الله وطاعة رسوله خير لك » قالت : « فتزوجته فاغتبط ^(٢) » .

أما إذا كان الخاطب ميسور الحال ، كثير المال ، قليل التقوى ، ضعيف الإيمان ، فلا شك أن المؤمن التقي هو المقدم المفضل على عظام الأغنياء .
و ما قيل في الرجل الخاطب يقال في الفتاة المخطوبة كذلك .

٣ - الحسب والمكانة الاجتماعية

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ^(٣) . من هذه الآية يظهر أن أصل الخلق البشري تكويناً

(١) أخرجه مسلم رقم ١٤٠٨ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الطلاق ، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها . و هو من حديث فاطمة بنت قيس الروي من عدّة

روايات في صحيح مسلم رقم / ١٤٨٠ / و ما بعده . من الروايات المتواليّة .

(٣) سورة : الحجرات ، الآية : ١٣ .

وإعداداً قام على التنوع والتعدد ، والزواج كفعل اجتماعي يقوّي من إدراك أهمية التنوع المؤدي إلى التعاون والتعارف القائمين على أساس من الوعي والفهم المتبادل بين الشعوب والقبائل إذ أن ذلك الوعي والتعارف الفاعل سيقودان إلى الإمساك بحبل التقوى الذي سيوصل الإنسانية المتمسكة به إلى إكرام الله تعالى إن كان هذا التمسك وُفق سنن الله وهديه من الحب والانسجام - على صعيد الزوجين المشكلين للأسرة المنسجمة المتفاهمة أو غيرهما - لذا فإن النبي ﷺ قال : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، لحسبها ... »^(١) وهذا مقبول واقع إذا توفرت حدود التقوى والإيمان . كما قال ﷺ : « تَخَيَّرُوا لِطَفْكُمْ ، و انكحوا الأكفاء ، وأنكحوا إليهم »^(٢) .

وربما يظن القارئ أن هذا الكلام متأثر بالفهم الطبقي الرأسمالي أو البورجوازي مما يُبعده عن الفهم الإسلامي القائم على التفاضل بالتقوى .

فالجواب : لا . لأن المقصود من ذلك ((أن الشرائح الاجتماعية المتقاربة المستوى والعادات والأعراف قادرة على فهم بعضها أكثر من المستويات الأخرى المتباينة وبالتالي فإن فرص نجاح الحياة الزوجية بين الشرائح المتقاربة أكبر من فرص النجاح بين الشرائح المتباينة ، ومع كل ذلك فهذا لا يعني أن الزوجين المنتميين إلى شريحتين اجتماعيتين مختلفتين فاشلان مخفقان في حياتهما الزوجية حتماً ، فقد تنجح الحياة الزوجية بينهما لأن حكمتنا على الطالب الأعم وليس على المطلق .

٤ - الجمال

حب الجمال فطرة في الإنسان ، فما من أحد إلا و يُسُرُّ برؤية الوردة الحمراء المفتحة ويكره الشوكة ... لذا حث الإسلام الخاطب على رؤية مخطوبته لعله يجد ميلاً تجاهها ، أو يتعرّف على عيوب جسدية أو معنوية و ذلك حرصاً على استقرار الحياة المستقبلية لكليهما . فعن

(١) أخرجه البخاري رقم / ٤٨٠٢ / و مسلم رقم / ١٤٦٦ / .

(٢) أخرجه ابن ماجة رقم / ١٩٦٨ / .

أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً تزوج امرأة من الأنصار فقال له صلى الله عليه وسلم : « أ تُنظَرُ إليها » ؟ قال : لا . فقال له : « اذهبْ فانظر إليها فإنَّ في أعين الأنصار شيئاً » ^(١) .

ومن نافلة القول أن نقول: إن الفتاة تكره الذميمة ، وكذا الشاب يكره الذميمة .
وفي كل الأحوال فالمسائل الجمالية ذوقية انطباعية نفسية في معظمها .
وهذه الأسس التي أشرنا إليها يقف على رأسها أساس التقوى والدين والأخلاق وسوى ذلك عوامل مساعدة . فإذا ما توفرت تلك الأسس والشروط كانت فرصة النجاح سائدة غالبية وفرصة الفشل ضعيفة واهية .

وفي النهاية فإن التوفيق من الله وحده .

جـ - ما الأهداف المرجوة من الاختيار المناسب للزوجين ؟

ما من اختيارٍ إلا وله هدف يتلوه . و لذا فإن الإسلام عندما حضَّ على الاختيار المناسب الصالح لكل من الزوجين فإنه أراد من ذلك تحقيق مجموعة من الأهداف منها :

١ - استقرار الأسرة واستمرارها :

لأن الحياة الزوجية لها رسالة وهدف ، وليست متعة عارضة ، ولا نزوة طائشة مؤقتة ، كما أنها تمتاز بطول حياتها وسعة طموحاتها ، ولا يمكن أن يتحقق كل ذلك أو جزء منه إذا لم يكن الاختيار سديداً ، فهيهات للمتخصصين أن يُنتجا ما يخدم المجتمع ويؤمن له الحياة الرغدة فـ « الأرواح جتودُ مجنّدة فما تعارَف منها اتّلف وما تناكرَ منها اختلف » كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث ^(٢) .

٢ - سلامة النشئ صحياً من الجوانب البدنية و النفسية و العقلية :

لما كانت الأمة بحاجة إلى ناشئتها وأجيالها لصيانة مستقبلها بعد بنائه فقد تطلّب ذلك

(١) أخرجه الترمذي رقم / ١٠٨٧ / .

(٢) أخرجه البخاري و مسلم وغيرهما .

منها العناية بسلامة هذا الجيل عناية شاملة منها العناية بأبدانها وأجسادها ، وهذا مما لا خلاف فيه إذا كانت الرعاية بعد ولادة المولود .

غير أن الإسلام كان سابقاً و محتاطاً في هذا إذ جعل بدء العناية بالناشئة قبل الزواج لأن الأمراض الوراثية التي قد يحملها أحد الأبوين أو كلاهما ، وكذلك الأمراض الإنتانية التي تصيب أحدهما ، وخاصة تلك التي تصيب المرأة إبان الحمل ، قد تؤثر على سلامة الجنين و بنية النسل أو تورث استعداداً لبعض الأمراض .

فإن خطوات العناية بالنشئ وإصلاح النسل في الإسلام تبدأ قبل الزواج فمنذ زمن الخطبة قدّم بياناً واضحاً للشروط التي تحقق نسلأ أكثر عدداً ، وأقوى بنية ، ثم تستمر تلك الخطوات بالعناية بصحة الزوجين وسلامتهما حتى وقوع الحمل ، ثم بالعناية بالحامل حتى زمن الوضع وما يلزم هناك من العناية الخاصة حيث يتم انفصال الجنين ، وعندئذ تبدأ العناية الخاصة به وتدوم حتى نهاية الطفولة^(١) .

لعل القضايا المتعلقة بحسن ولادة النشئ واستمرار قوته تقضي معالجة ثلاثة أمور :

١- سن الزواج .

٢ - الشروط الصحية في الخاطبين .

٣ - السلامة الخلقية والدينية بينهما .

١- سن الزواج :

أ - يبدأ صحياً سنّ الزواج للأنثى بعد البلوغ بسنتين أو ثلاث حيث يكون بلوغ الأعضاء التناسلية في كماله لتصبح قادرة على القيام بالوظائف الجنسية . ويقرب الأنثى من سن الرشد تزداد مداركها للمسؤوليات الملقاة على عاتقها مستقبلاً ، لذا فليس من المناسب لصحة الأجيال ولا لصحة المرأة أن يتأخر الزواج عن الخامسة والعشرين حتى الثلاثين لأن بلوغ المفاصل عندئذٍ

(١) محمد ناظم نسيمي ، الطب النبوي والعلم الحديث ، ج٢ / ص ٧٧ . ط٣ ١٩٩١ .

صلابتها القسوى يجعل اتساع أقطار الحوض وتكيفها للولادة بعد هذه أمراً صعباً^(١).

((ولقد ثبت أن الأطفال المولودين من أمهات دون العشرين من العمر والأطفال المولودين من أمهات فوق الأربعين من العمر أقل حظاً في البقاء على قيد الحياة من الأطفال الذين يولدون من أمهات في متوسط العمر ... وهذا يعني أن نسبة الوفيات في المولودين من أمهات صغيرات أو كبيرات أعلى منها في المولودين ممن أمهات في متوسط العمر))^(٢).

وهذه الملاحظات الطبية السابقة الذكر لا تمنع من عقد الزواج ثم البناء بالصغيرة بعد البلوغ ولكن توجب الحذر وأخذ الاحتياطات بالإشراف الطبي خلال الحمل وحين الولادة وبالعناية بالأم والوليد وخاصة في الحمل الأول^(٣).

ب - سن الزواج بالنسبة للرجل :

أما سنّ الزواج للرجل ، فإنه وإن كان أبعد مدى وأطول مدة مما هو في المرأة ، وقد لا ينتهي إلا بانتهاء العمر ، فأكثر سنيه إخصاباً ما كان في حدود سنّ الزواج في المرأة مع التماذي قليلاً بعده^(٤).

٢ - الشروط الصحيحة في الخاطبين :

والى الذين تهمهم صحة أولادهم جسدياً وتؤلمهم المشاهد المشوهة الحاصلة أحياناً في بعض الولادات فلا بد لهم من زواج أمثل تتوفر فيه الشروط التالية :

آ - سلامة الخاطبين من تعاطي المسكرات والمخدرات :

(١) د . محمد ناضم النسيمي ، الطب النبوي ، ج٢ / ص ٧٨ . نقلاً عن كتاب فن الصحّة لأحمد حمدي الخياط .

(٢) من كلمة للدكتور هشام غيبة الاختصاصي بأمراض الأطفال عن (زيادة حجم الأسرة وصحة الطفل) في الحلقة الدراسية عن شؤون صحة الأم و الطفل و تنظيم الأسرة التي عقدتها وزارة الصحة السورية بالاشتراك مع منظمة اليونسكو / الصحة العالمية في / ٢١ / ١٢ / حتى / ٣ / ٢٢ / من عام ١٩٧٤ .

(٣) د . ناظم النسيمي ، ج٢ / ص ٧٩ .

(٤) أحمد حمدي الخياط ، فن الصحّة و الطب الوقائي . بتصريف .

لما فيها من أمراض نفسية وعصبية واضطرابات في المعاشرة والسلوك .

ب - سلامة الخاطبين من الأمراض الوراثية :

إذ لا يجوز من أجل سلامة النسل أن يتم الزواج بين مصابين بالمرض الوراثي ذاته ، ولا بين منتمين إلى أسرة واحدة فيها مرض وراثي ، أو إلى أسرتين ليس بينهما قرابة ولكن تحملان ذات المرض الوراثي . وهذا يمكن التأكد منه قبل القيام بعقد الزواج ، بالسؤال عن تعاطي الزوجين أو أحدهما المخدرات ، وبالسؤال أو الفحص عن الأمراض الوراثية ^(١) .

ت - سلامة الخاطبين من الأمراض المزمنة :

إرثية كانت أم غير إرثية ، وخاصة تلك التي قد تؤدي إلى النفرة بينهما ، كإصابة أحدهما ببدء الصرع ، أو بسلس البول الليلي . ومن الأمراض المزمنة ما يتفاقم بالحمل وقد يؤثر سوءاً على سلامة الجنين وإمكانية استمرار حمله ومن أمثلتها المرض القلبي والقصور الكلوي ، وارتفاع التوتر الشرياني ، فمن المهم التفتيش عن ذلك قبل الخطوبة ^(٢) .

ث - سلامة الخاطبين من الأمراض السارية :

كالسسل والأمراض الزهريّة كالإفرنجي والسيلان . وهذه السلامة هامة لتجنب عدوى السليم وحفاظاً على الإنجاب وصحة النسل ^(٣) . ولا بد من تجنب المرض اللعين الإيدز - فقدان المناعة - مع التذكير أن دوائر الصحة تمنع كتابة عقود الزواج لمصابين بهذه الأمراض حتى يتم الشفاء بتقرير من الطبيب المعالج ^(٤) ((لأن الأولاد معرضون للإصابة بالسلسل قبل الولادة وبعدها بتأثير المحيط الموبوء لذا يجب عزله فور الولادة)) ^(٥) .

(١) د . ناظم النسيمي ، الطب النبوي و العلم الحديث ، ج٢ / ص ٨٠ .

(٢) د . ناظم النسيمي ، الطب النبوي و العلم الحديث ، ج٢ / ص ٨١ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) د . ناظم النسيمي ، الطب النبوي و العلم الحديث ، ج٢ / ص ٨١ .

ج - انسجام زمر الخاطبين الدموية :

لأن ٩ إلى ١٠ ٪ من الحوادث المرضية في الولادة الناتجة عن اختلاف زمر الزوجين تأتي عن الاختلاف في الزمرة RH عندما تكون هذه الزمرة عن الزوجة سلبية وعند الزوج إيجابية وبأتي الجنين وارثاً هذه الزمرة الإيجابية عن أبيه ، أما العكس فلا ضرر منه .
وأما الحوادث التي تتسبب عن الأشكال الأخرى من الاختلاف في الزمرة كأن تكون زمرة الزوجة O وزمرة زوجها غير ذلك وخاصة إذا كانت زمرة A فهي تشكل من ١ / ١٠ من الحوادث وهي دون الاختلاف السابق فداحة . ويمكن الاطمئنان عن انسجام الزمر لدى الخاطبين بالرجوع إلى أحد المخابر الطبية^(١) .

٣ - السلامة الدينية والخلقية في الخاطبين :

عندما يُسمح للطفل القيام بأعماله دون تكبير يفهم من هذا أن أعماله مشروعة وخيرة ، وعندما يُنكر عليه يفهم أن أعماله مذمومة . على هذا فهو يتعلم من الكبار (آباءه ، إخوته ، المحيط به فهو يمتص من محيطه العائلي والاجتماعي) المقاييس الأخلاقية ، لذا قال ﷺ : « كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه »^(٢) . من هذا يظهر مدى الارتباط الوثيق بين الدين والأخلاق - فالطفل عندما يتلقَى مقاييسه عن الأخلاق مشفوعة بالإيمان تكون أخلاقه ذات قداسة واحترام وإجلال .

وأما الخاطبين فعليهما أن يتصفاً معاً بصفة الخلق والدين كما نصَّ الرسول الكريم ﷺ عنى أهمية الأخلاق في أحاديث مستقلة خاصة لأهميتها علماً أن الأخلاق متضمنة في الدين . كما ينبغي على الأولياء أن يزوجوا بناتهم الصالحات للصالحين من الشباب . وعلى الشباب بعد تيقنهم صلاح الفتاة أن ينظروا إليها كي يكتشف مواقع القبول والرفض منها

(١) د . ناظم النسيمي ، الطب النبوي و العلم الحديث ، ج ٢ / ص ٨٢ - ٨٣ .

(٢) أخرجه البخاري . و انظر محمد ناظم النسيمي في الطب النبوي ج ٢ / ص ٨٥ .

فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه خطب امرأة فقال له النبي ﷺ : « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » ^(١) أي أحرى أن يحصل بينكما الانسجام والموافقة .

(١) أخرجه الترمذي و أحمد .